ملف
٦

مع أبو عمار في حصار بيروت

فواز طرابلسي

قبل أن يحاول شارون اغتياله بسُمّ الحصار في «المقاطعة» في رام اللّه، وقبل أن تقوى عليه السموم التي أودت أخيراً بحياته، سعى شارون إلى اغتياله خلال حصار بيروت، صيف ٨٢. كثيرون قد لا يذكرون أن أسلوب اغتيال الأفراد بواسطة الطائرات الحربية - المعتمد على نطاق واسع في فلسطين منذ الانتفاضة الثانية - قد افتتحه الإسرائيليون واختبروه خلال ذلك الحصار. وفي لبنان ما بعد ١٩٦٨، افتتحوا «الحرب الوقائية» القائمة على عدم انتظار هجمات المقاومة الفلسطينية على المواقع الإسرائيلية عَبر الحدود والمبادرة إلى ضرب المخيمات والقرى والقواعد الفدائية، عكس ما كان سائداً آنذاك في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية من «شرعية الدفاع عن النفس» أو «الرد على اعتداء». بل إن مصطلح «الحرب الاستباقية» استخدمه لأول مرة ناطق بلسان الجيش الإسرائيلي بصدد لبنان في السبعينيات للتدليل على تجاوز منطق الدفاع المشروع عن النفس والرد على الاعتداء. من إسرائيل الليكودية أخذ المحافظون الجدد في الولايات المتحدة

فواز طرابلسي، كاتب لبناني - بيروت

فكرة «الحرب الاستباقية» التي صارت جزءاً عضوياً من العقيدة العسكرية الأميركية ما بعد أيلول ٢٠٠١.

كنت أتمنى لو أن أحداً غيري يكتب عن الرجل الذي كانت تطارده طائرات الفانتوم خلال حصار بيروت. أقصد أحد الذين عايشوه عن قرب أكثر مني. فكل ما أستطيع تقديمه من قبيل الشهادة، بعض المحطات صدف أنها كانت دالّة على مخيّلة ياسر عرفات العملية، وعلى المعدن الذي ينم عنه الرجل خلال المواجهات وفي ملاعبته الموت.

■■■

لم يكن الغزو الإسرائيلي للبنان صيف ١٩٨٢ مفاجئاً كلياً للقيادة الفلسطينية - اللبنانية. منذ مطلع العام ١٩٨٠، أقلاً، كانت ترد معلومات عن خطة ما في ذاك الاتجاه. ثم أخذ أبو عمار يتحدث في مجالسه عن خطة أسماها «خطة الأكورديون» تقوم على اجتياح إسرائيلي من الجنوب يكمّله اقتحام «القوات اللبنانية» لبيروت الغربية. ما لم يكن واضحاً بعد، كان المدى الذي سوف تذهب إليه العملية الإسرائيلية: هل تقتصر على إجلاء مقاتلي «القوات المشتركة» اللبنانية - الفلسطينية على عمق أربعين كيلومتراً من الحدود اللبنانية - الإسرائيلية، فتقف عند جنوب صيدا، أم تندفع شمالاً نحو بيروت ونحو طريق دمشق - بيروت شرقاً. في احتمال أول، سوف يحقق الغزو الحدّ الأدنى ممّا لم يستطع تحقيقه العام ١٩٧٨، وهو منع أي سلاح مدفعي أو صاروخي فلسطيني من أن يطال المستعمرات الإسرائيلية في الجليل الأعلى. أما في الثاني، فيثور السؤال: هل سوف يؤدي التقدّم الإسرائيلي إلى محاصرة بيروت؟ بعد أيام معدودات على الغزو، عندما اقتحمت القوات الإسرائيلية صيدا، تأكد الأمر أن الغزو بات يستهدف حصار بيروت، واقتلاع ما أسماه ارئيل شارون «البنية التحتية» لمنظمة التحرير. وليس هذا وحسب، بل تجلّى الوجه السياسي للغزو: فرض حكم لبناني تابع لإسرائيل بتنصيب بشير الجميّل رئيساً للجمهورية.

مهما يكن، منذ أن وردت تلك المعلومات وأبو عمار يعدّ العدة لأقصى الاحتمالات: حصار يطول لبيروت. وحقيقة الأمر أنه لا يمكن تصوّر صمود أهالي بيروت خلال ذاك الحصار دون الإعداد اللوجستي الذي أشرف عليه أبو عمّار شخصياً بكل حذافيره. للتذكير، كان أول هدف قصفه الطيران الإسرائيلي يوم ٤ حزيران، أي قبل يومين من بدء الغزو الفعلي، هو المدينة الرياضية في بيروت، وكان أبو عمّار قد حوّلها إلى مستودع ضخم للمؤن الغذائية (والسلاح والذخيرة أيضاً). ولكن على الرغم من تدمير ذلك المستودع الحيوي، فعندما أحكمت القوات الإسرائيلية

الطوق على المدينة، وأغلقت كل منافذها وقطعت عنها الماء والمحروقات والمواد الغذائية، بقيت مستودعات أبو عمّار الأخرى قادرة على تلبية الحد الأدنى المطلوب من احتياجات أهالي بيروت والضاحية الجنوبية. وقد تولى جهاز لبناني فلسطيني خاص توزيع وحدات غذائية يومية معلّبة على الألوف من الأسر خلال الأسابيع الأخيرة من الحصار.

■■■

تزايد الضغط العسكري على بيروت الغربية مع حلول شهر آب، وبعد مباشرة المفاوضات من أجل انسحاب مقاتلي وأجهزة وقيادات منظمة التحرير من بيروت بإشراف المبعوث الأميركي فيليب حبيب. أخذ القصف الإسرائيلي بالأسلحة الثلاثة – المدفعية الأرضية والطيران والبوارج الحربية – يشتدّ ويركز على أحياء: الظريف وعايشة بكار ومار الياس ورأس بيروت، وقد انتقل إليها الكثيرون بمن فيهم القيادات والمكاتب، هرباً من المناطق المعروفة والمستهدفة مثل الطريق الجديدة والفاكهاني.

خلال يوم الأول من آب الرهيب، تقدمت القوات الإسرائيلية لاحتلال مطار بيروت الدولي، ممطرة المدينة من الثالثة والنصف فجراً حتى الخامسة بعد الظهر بما لا يقل عن ١٨٠ ألف قذيفة من مختلف الأعيرة، حسب تقارير وكالات الأنباء. في ذلك اليوم الرهيب، كنا في مركز تجمع الشباب الديمقراطي في المزرعة عندما صعد أحد الرفاق يبلغنا أن «أبو عمار» في سيارته يسأل عن الرفيق محسن إبراهيم. نزلنا إليه أنا والرفيقان زهير رحال ونصير الأسعد، وهرولنا معاً. كان رمزي حيدر مصوّر مجلة «بيروت المساء» حاضراً بالصدفة والتقط لنا صورة. ها هي الصورة أمامي الآن: أبو عمّار بالثياب العسكرية يقطع الطريق مسرعاً نحو البناية، ونحن نسعى للحاق به إلى مركزنا في الطبقة الأولى من المبنى. رفض الصعود. قال: أريد مكاناً آمناً تحت الأرض. مستودع، أي شيء. لحسن الحظ أنه كان للمبنى مستودع. فتحناه: كان مستودع سجّاد. وصدف أنه كان ثمة هاتف معلّق إلى أحد الأعمدة في وسط المستودع الشاسع. طلب أبو عمّار طاولة وكرسياً، وضعهما بحذاء العمود وحمل له مرافقه فتحي ملفّاته من السيارة، وفي لحظات تحوّل مستودع السجّاد إلى مركز جديد يصدر منه القائد العام لقوات المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية الأوامر، ويتلقى التقارير عن سير العمليات، ناهيك عن استقباله الزوّار.

■■■

يوم السادس من آب ١٩٨٢ سجّلت في يومياتي ما يلي:

«الرجل الذي تطارده طائرات الفانتوم مرّ علينا ليلاً. حذرٌ وقويٌّ ومتوثّب كالنمر الجريح، والمطاردة تزيده توثّباً وقوة».

السادس من آب: أولى محاولات الاغتيال بواسطة القنبلة الفراغية التي ألقيت على أساسات بناية عكر في منطقة الصنايع. انهار المبنى على من فيه من نازحين من مناطق القتال والمخيمات. سقط مئات بين قتيل وجريح، معظمهم من سكان مخيّم الضبيّة الذي اجتاحه مقاتلو حزب الكتائب عام ١٩٧٦ وأجلوا سكانه الفلسطينيين المسيحيين إلى بيروت الغربية. وكان أبو عمار يستخدم أحد المكاتب في تلك البناية للقاء الصحافيين. قيل آنذاك: إن القنبلة دمرت المبنى بعد فترة وجيزة من زيارة «أبو عمّار» للمكتب. ولم تقتصر محاولة الاغتيال تلك على تدمير المبنى. فبعد دقائق انفجرت سيارة مفخّخة عند مدخل وزارة الإعلام على بعد أمتار من البناية المدمّرة. وكان أبو عمّار كثيراً ما يرتاد مبنى الإذاعة ووزارة الإعلام للاجتماع بالمسؤولين السياسيين والأمنيين وقيادات الحركة الوطنية.

في اليوم ذاته، باشرت طائرات الفانتوم تحليقها في سماء بيروت ساعية إلى قنص «أبو عمّار». وأبو عمّار ينتقل من مكان إلى آخر، ومن مدخل بناية إلى مدخل بناية أخرى، قبل أن يرحب به السكان، راجين إياه أن لا يطيل البقاء حتى لا تلقى بنايتهم المصير الذي لقيته بناية عكر. لجأ سلاح الجو الإسرائيلي إلى القنص بواسطة مقاتلاته، لأن استخدام السمتيات (الهيليكوبتر) كان ينطوي على مجازفة كبيرة بسبب امتلاك المقاومة الفلسطينية صواريخ «سام ٦» المحمولة إضافة إلى المدفعية المضادة للطائرات.

ظل أبو عمّار يتجوّل في المدينة شبه الخاوية وطائرات الفانتوم تطارده حتى حلت العتمة. مرّ مع صحبه ليلاً على شقتي في الزيدانية، التي كنا نستخدمها مركزاً لقيادة منظمة العمل الشيوعي خلال الحصار. يسأل عن محسن إبراهيم. دلّه الحرس علينا، حيث كنا أنا وعدد من أعضاء القيادة ومعنا الرفيق محسن، مجتمعين في الطبقة الأرضية من بناية شاهقة على بعد بضعة مئات الأمتار بين شقتي باتجاه كركول الدروز. الرفاق الذين غادروا وتركوا لنا الشقة، اقفلوا أبواب الغرف تاركين لنا غرفة الجلوس التي يفضي اليها باب الشقة مباشرة. كنت على الهاتف أتحدث مع أحمد الديراني، الرفيق المسؤول عن الضاحية الجنوبية، عندما طرق الباب ودلف أبو عمّار مسرعاً ومعه أحد مرافقيه. وضع إصبعاً على فمه داعياً إلى وقف الحديث الهاتفي فوراً، ثم أومأ بيده بحركة تقول: أطبق سمّاعة الهاتف. فعلت. لم يكد يستقرّ ويبدأ تبادل الأحاديث حتى طرق الباب من جديد. تراجع أبو عمّار إلى مؤخّرة غرفة الجلوس بحيث لا يمكن رؤيته من الباب. شققتُ الباب

شقاً وأطللتُ برأسي منه، فإذا بامرأة تسأل:

- أبو عمّار هنا؟

- مَنْ؟ سألتُ، كأني أسمع اسم الرجل للمرّة الأولى.

- يا أستاذ، أنا سوريّة ونحن معكم. وأعرف أن «أبو عمّار» هنا. أردت فقط أن أبلغه أن أهل البناية شاهدوه يترجّل من سيارته ويدخل البناية وها هم يغادرونها جميعاً. وأشارت بيدها إلى السلالم. فتحتُ الباب للنظر باتجاه إشارتها فإذا بالعشرات من سكان البناية، شيباً وشباناً، نساءً ورجالاً، متكردسون يتدافعون للمغادرة، والعديد منهم محمَّلٌ أطفالاً وأمتعة وأشياء أخرى مختلفة.

لم نمكث طويلاً بعد ذلك. خرجنا بدورنا. لحسن الحظ، أن الرفاق كانوا قد عثروا على مستودع تحت الأرض في بناية مجاورة كانت لا تزال قيد الإنشاء عندما دهم الحصارُ المدينة، فتوقفت أعمال البناء فيها. فأخذنا نستخدمه كمهجع للحرّاس والمرافقين. دلفنا إلى المستودع في جنح الليل. وكعادته في المرة السابقة، سرعان ما تحول المستودع إلى مركز قيادة جديد. استدعى أبو عمّار إليه العقيد سعد صايل، قائد القوات المشتركة خلال الحصار. وسعد صايل، الضابط السابق في الجيش الأردني، خرّيج الكليات الحربية البريطانية، الذي انضم إلى قوات المقاومة الفلسطينية خلال أيلول الأسود ١٩٧٠ في الأردن، كان يحب أن يسمّي نفسه في حصار بيروت بـ «قائد جيش النَوَر»، وصفاً لحالة المقاتلين اللبنانيين والفلسطينيين الموضوعين تحت إمرته للدفاع عن بيروت في وجه الجيش الإسرائيلي، القليلي العديد والعتاد، والضعيفي التدريب والانضباط. علماً أن العقيد صايل و«جيش النَوَر» الذي قاده أبليا أحسن البلاء في الدفاع عن بيروت لمئة يوم أو يزيد، ومنعوا الجيش الإسرائيلي من دخولها. أما في تلك الآونة، فقد كان صايل يعدّ مذكرة باسم منظمة التحرير إلى فيليب حبيب بشأن انسحاب المقاتلين الفلسطينيين من بيروت. وكان أبو عمّار تقدّم باقتراح إلى المبعوث الأميركي، بواسطة رئيس الوزراء اللبناني شفيق الوزّان، يقضي بفصل للقوات، يتم بموجبه انسحاب القوات الإسرائيلية مسافة خمسة كيلومترات عن بيروت تمهيداً لمباشرة مفاوضات الانسحاب. لم يكن أبو عمّار بهذا يماطل في الانسحاب وحسب. كان يواصل السعي لتنفيذ فكرته الأصلية: فرض الاعتراف به وبمنظمة التحرير والشعب الفلسطيني طرفاً في الحرب وفي النزاع العربي - الإسرائيلي.

رفض فيليب حبيب الاقتراح. وجاء يوم القصف الرهيب ذاك، تأكيداً بالقذائف من فيليب حبيب على ذلك الرفض: لا مفاوضات ولا شروط للانسحاب الفلسطيني من بيروت.

في ذلك المستودع، جلستُ أساعد العقيد صايل في التدقيق ببعض العبارات بالإنكليزية، فيما استلقى أبو عمّار على أحد الأسرّة يرتاح. تنفّسنا الصعداء. وسرعان ما توزّع الحضور على الأسرّة يرتاحون بدورهم من ذلك اليوم الرهيب وقد جاوزنا منتصف الليل. لم يمضِ وقت طويل حتى ترامت أصوات تبادل إطلاق للنار قريبة. وثب أبو عمّار من سريره وثباً، واعتمر قبّعته العسكرية وأخذ يوقظ جميع النائمين. وكان في روعه إمكانية إنزال مظليين ينفّذون عمليات اغتيال. وكان من جملة من أيقظ أحد الرفاق المقاتلين من عرسال. فلما نهره أبو عمّار موقظاً إياه، ردّ عليه ببرود، بلهجته البقاعية: «يا بو عمّار، لا إنزال ولا شيء. هذا اشتباك بين «المرابطون» و«الأفواج العربية» في الحي». تبيّن أن حدس الرفيق البقاعي كان صحيحاً. فتلك الاشتباكات كانت مألوفة في الحيّ. لكن لم يكن أبو عمّار يملك ترف المجازفة بالاستطلاع والتحقّق من مصادر النيران وسبب تبادلها. كان الحذر سيّد الأحكام هنا وبوصلته إلى الأمان.

إن هي إلا ثوانٍ فإذا أبو عمّار قد توارى وصحبه في عتم الليل.

■■■

كتبت في مناسبة سابقة عن مفارقات الحصار. قلت: إن ضيق الحصار يفتح المجال رحباً أمام الشطحات الرؤيوية. وكان أبو عمّار هو الرائي الأول في حصار بيروت. رأى الجنّة تهبّ رياحها عليه. ورأى فلسطين. والجنة وفلسطين واحد عند ياسر عرفات المؤمن. وعندما سأله الصحفي الإسرائيلي أوري أفنيري «إلى أين من بيروت؟» أجاب ببساطة مَن يستغرب السؤال: «إلى فلسطين!».

إذا كان أبو عمّار قد استغرب الجواب حينها، هل يحق لنا، الآن، أن نستغرب الجواب؟ لقد حقّق ياسر عرفات الرؤية التي أصابته بألقها خلال حصار بيروت، وإلى فلسطين عاد. فماذا يُقال عن ذلك الرؤيوي البرغماتي أبلغ مما هو قد فعل؟

وفي اللقاء الأخير في مكتب الصديق المحامي سنان بّراج، عشية مغادرته بحراً إلى المنفى الجديد، كانت فترات صمت طويلة. وكانت سيارة مرسيدس بيضاء تنتظره في طريق متفرّع من شارع مار الياس. سيارة مرسيدس صارت غرفة نوم «أبو عمّار» وخزانة ثيابه ومكتبه وملجئه و. . . فلسطينه. وقبل أن يغادر، ترك لنا عصاه وعباءته، كأنه يقول: إن زمن الارتحال خارج فلسطين قد انتهى.